# الفصل السابع

# أهل الذمة في العصرين

# العباسي والعثماني

## تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة:

تمتع أهل الذمة بالتسامح والحرية في العصر العباسي، وامتلأت بغـداد بكثير من الأديرة أشهرها دير العذارى، وكان في قطيعة النصارى على نهر الدجاج، ودير درمايس الذي وصفه الشابشتي في كتابه (الديارات)، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار، ويقصده الناس للنزهة، ودير الروم شرقي بغـداد، الذي أشار أحد رهبانه على أبي جفعر المنصور ببنـاء مدينتـه فـي هـذا الموضع، وكان بالنسطوريين. وكان النصاري واليهود يقيمـون شـعائرهم الدينية في أديارهم وبيعهم في بغداد وخارجها في أمن وسلام، مما يدل علي أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الديني مـغ أهـل الذمة.

وقد أوجدت الحاجة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بـين المسلمين واليهود والنصارى نوعًا من التـسامح، ولـم تتـدخل الحكومـة الإسلامية كذلك في شعائر أهل الذمة، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بحمايتهم[٢٠٧].

---

[٢٠٧]) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٢٩١.

تولى كثير من المسيحيين المناصب الكبرى في العصر العباسي، فتولى أبو إسحاق الصابي منصب (الكاتب) وكان من أسمى المنصاب، كما كـــان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيًا. وبرز رجال مـــسيحيون فـــي بلاط الخلفاء العباسيين، أمثال: جبريل، سلامية، حنين بن اسحق، يوحنا بن ماسويه. أما الخليفة المعتضد الذي لم يكن يسمح لأحد، مهما كانت منزلتـــه، بأن يجلس في حضرته، فقد أعطى هذا الحق لوزيره الذمي ثابت بن قرة.

كان المتوكل حقيقة أول خليفة عباسي يفرض على المسيحيين واليهـــود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين- ويعلق المؤرخ الهندي المسلم (خودانجش) على هذه السياسة فيقول: ولكن يجب ألا ننسي أن ذلك الخليفـــة هو الرجل الذي اعتدى علي قبر الحسين وخالف أبرز تعاليم الإسلام، فهـــل يمكن أن نعتبره نموذجًا لمعاملة قادة المسلمين؟ فقد أدت أعماله الـــشيطانية إلي اشتهاره بأنه رجل فاسد. وفيما يتعلق بهذا الموضوع، يجدر بنا أن نتذكر أن المسلمين تعلموا من الشعوب المغلوبة كل ما استطاعوا أن يتعلموه، عدا محاكماتهم في عاداتهم وملابسهم، وإن كان هناك بعض الخلفاء قد اقتبـــسوا بعض أزيائهم، وخير مثال على ذلك المأمون والمعتصم بالله.

ولكن المتوكل لم يكن متعصبًا، بل استعان ببعض الموظفين المسيحيين مثل دليل بن يعقوب النصراني. وكان للخليفة المقتدر أربعـــة كتـــاب مـــن المسيحيين. وكان الكتاب المسيحيون منتشرين في كـــل مكـــان، حتـــي أن محمد بن عبد الله بن طاهر في القرن الثالث الهجري اتخـــذ لـــه قهرمانيًـــا نصرانيًا. وكان الحسين بن قاسم وزير الخليفة المقتدر (٣١٩هـــ) يتقرب إلى النصارى الكُتّاب ويحسن معـــاملتهم[٢٠٨] وكـــان للخليفـــة الطـــائع (٣٦٣-

[٢٠٨]) متز: الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـــ، ج١، ص٨٩.

٣٨١هـ) كاتب نصراني. وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفي سنة ٣٧٣هـ) في بغداد، والخليفة العزيز في القاهرة وزيرًا نصرانيًا. وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البيع والأديرة وفي إطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له.

وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ، لا وزير التفويض، من أهل الذمة- فقد كان وزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش. أما وزير التفويض فهو الذي يفوض الخليفة إليه تدبير المملكة برأيه، ولم يكن وزير التنفيذ إلا سفيرا بين الخليفة والرعية.

اعترف المؤرخ (ترتون) [٢٠٩] بحسن معاملة أهل الذمة في العصر العباسي، فقال: " أن ذمية المرء لم تكن تحول قط بينه وبين تولي المناصب الدينية الرفيعة بين المسلمين، ولنسق دليلين على ذلك أحدهما هو الصوفي صاحب الكرامات معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، فقد خرج من صلب أب نصراني، وأما الأخر فهو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي القاضي المجوسي الأب، وقد توفى الحسن سنة ٣٦٨هـ. وعلى أية حال، فقد كان النصارى في بعض الأحايين يؤثرون العيش في ظل الحكم الإسلامي على العيش في ظل إخوانهم المسيحيين".

---

[٢٠٩]) الشابشتي: الديارات ص٦٠ .

# أهل الذمة والمناصب الكبرى:

اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء، مثـل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه. ومن هؤلاء جبرائيل بن بختيـشوع طبيـب هـارون الرشيد، الذي قال الرشيد عنه: كل من كانت له حاجة إلي فليخاطـب بهـا جبريل لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني- وكان مرتـب الطبيـب عشرة آلاف درهم شهرياً. ومن هؤلاء أيضًا (ماسويه) الذي كـان الرشـيد يجري عليه ألف درهم سنوياً، ويصله كل سنة بعشرين ألفاً. وأشاد (ترتون) [٢١٠] بتسامح المسلمين فقال: والكُتَّاب المسلمون كريمون في تقدير فـضائل هؤلاء من على غير ملتهم حتي ليسمون حنين بن اسـحق بـرأس أطبـاء عصره، وهبة الله بن تلميذ بأبو قراط عصره وجالينوس دهره.

وكان بختيشوع بن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى أنه كـان يضاهيه في ملابسه وفي "حسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراته في الطيب والجواري والعبيد". ولما مرض (سلموية) بعث المعتـصم ابنـه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلي عليـه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى، وامتنع المعتصم، يوم موتـه، عن أكل الطعام.

أما يوحنا بن ماسويه، فقد خدم الخلفاء العباسيين منـذ الرشـيد إلـى المتوكل، وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتنـاولون شـيئا مـن

---

[٢١٠] الشابشتي: الديارات ص٦٠ .

أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثم لم تكن هناك أدنى كلفة بينه وبـــين الخليفـــة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين .

واشتهر من بين أهل الذمة كثير في ميـــدان الآداب والفنـــون، فيقـــول (ترتون) : ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، بل إن كثيرا من هذه الفترة، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالاً من غير المسلمين .

درس كثير من الذميين على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين. من ذلك أن حنين بن أسحق درس على يد الخليل بن أحمد وسيبوية حتى أصبح حجة في العربية [٢١١]. وتتلمذ يحيي بن عدي بن حميد- أفقه رجـــال عـــصره فـــي المنطق- على يد الفارابي. ودرس ثابت بن قرة على محمد بن موسي الذي قدمه إلى الخليفة المعتضد العباسي. وتلقى ابن جزلة علومه على يد على بن الوليد من رجال المعتزلة، وكان حسن الخط متمكنا من الأدب، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره وقوة معرفته، وما لبث أن اعتنق الإسلام[٢١٢].

ويضرب المؤرخ (ترتون) [٢١٣] لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مـــثلا فيقول: يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال مثالاً لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة فامتدحه الشعراء، وعرض عليه عز الدولة باختيار بن معز الدولة البويهي أن يوليه الـــوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفًا في

---

[٢١١]) الأصفهاني: الأغاني، ج٨، ص١٣٦، في الحاشية.

[٢١٢]) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج١، ص١٨٥.

[٢١٣]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٥٦.

مذهبه، وكان بينه وبين الصاحب إسماعيل بن عباد والشريف الرضي مراسلات ومواصلات، رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حافظًا للقرآن.

واهتم الكتاب المسلمون بالأديان والمذاهب، فكان ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ=١٠٦٤) مُلمًا بالإنجيل واللاهوت المسيحي إلمامًا تامًا. وألمَّ ابن خلدون بالإنجيل والتنظيمات الكنسية، وتحدث عن بعضها في مقدمته. وكان القلقشندي يرى ضرورة معرفة الكاتب بأعياد الذميين الدينية. وذكر المقريزي كثيرًا من التفاصيل عن أعياد النصارى واليهود، وتحدث عن فرقهم المختلفة، وذكر أسماء بطارقة الإسكندرية. وتحدث كل من القزويني والمسعودي عن طوائف أهل الذمة، نرى هذا واضحا في كتاب (التنبيه والأشراف للسعودي).

واعترف (ترتون) [٢١٤] بتسامح الحكام المسلمين فقال" كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين، وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود، بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها، فاكتنزوا الثروات الضخمة وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية.

---

[٢١٤]) أهل الذمة في الإسلام، ص٢٥٦.

## إقبال أهل الذمة على الإسلام في عهد المأمون العباسي:

من الوثائق التاريخية، وثيقة إسلامية تعود إلى عصر المأمون العباسي (١٩٨- ٢١٨هـ)، وهي رسالة كتبها عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، وهو ابن عم الخليفة، إلى عربي مسيحي كريم المحتد، هو المسيح بن إسحاق الكندي، وكان له منزلة كبيرة في البلاط، وموضع احترام وتقدير الخليفة. وهذه الوثيقة هي صورة واضحة من صور الدعوة إلى الإسلام، وقد تحدث المؤرخ (توماس أرنولد)[٢١٥] عن هذه الوثيقة فقال: "وفي هذه الرسالة يرجو ابن عم الخليفة من صديقه المسيحي أن يدخل في الإسلام، وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر".

وإن كان الخليفة المأمون يرغب غير المسلمين في اعتناق الإسلام، إلا أنه لم يكن يرضى أن يعتنقه أحدهم إلا عن اقتناع تام وقبول حقيقي ، وكثيرًا ما هاجم المأمون في مجالسه هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام لغرض دنيوي، وكان يشبههم بالمنافقين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. ويعلق (أرنولد) على موقف المأمون هذا فيقول: "وهذا يدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا الإسلام حديثاً، اقتناعا بريئًا خالصًا، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدنيئة في اعتناقه للدين قد جرت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع".

---

[٢١٥] الدعوة إلى الإسلام ص١٠٤.

ووجه المأمون اهتمامه إلى الشعوب التي كانت تسكن في الأطراف الشرقية من الدول العباسية وخاصة بلاد ما وراء النهر فقد ترك الحرية الدينية التامة في اعتناق الإسلام، وكانت لهذه السياسة الرشيدة الحرة أثرها في إقبال كثير من الذميين على الإسلام في حرية تامة.

وتحدث المؤرخ (ترتون) [٢١٦] عن التسامح في عهد المأمون العباسي وضرب لهذا التسامح مثلا فقال: وفي زمن خلافة المأمون، كان هناك نصراني يدعى ( بكام ) من أثرياء بورة من أعمال مصر، فإذا كان يوم الجمعة لبس السواد – وهو شعار العباسيين – وتقلد السيف، وامتطى حصانه ومضي إلى الجامع وبين يديه رجاله، حتى إذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رسولاً مسلمًا من قبله دخل الجامع وصلى بالناس. ويضرب المؤرخ (ترتون) [٢١٧] أيضاً مثلا آخرًا، فيقول: وفي عهد المأمون أعيد ترميم الديارات في وادي النطرون، وقام بعض حجاب المأمون بإعادة بناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة، واستطاع مسيحيان الحصول على إذن يخول لهما بناء كنيسة على جبل المقطم، لأن الكنائس الموجودة بالقلعة كانت شديدة البعد، وفي هذه الحقبة شيد( بكام)أحد أثرياء نصارى بوره) عدة كنائس رائعة في بلدته.

---

[٢١٦] أهل الذمة في الإسلام ص١٢٥.

[٢١٧] المصدر السابق ص٥١.

## المجوس في العصر العباسي وإقبالهم على الإسلام:

تناقص عدد المجوس في العصر العباسي، وأقبل كثير منهم على الإسلام. وإن بقاء طائفة المجوس طوال العصر الأموي وفترة من العصر العباسي لدليل واضح دامغ على تسامح المسلمين وعدم لجوئهم إلى القوة في نشر الإسلام. وقد شهد أواخر القرن الثالث الهجري (نهاية القرن الثامن الميلادي) دخول أعداد كبيرة من المجوس في الإسلام. فقد أسلم سامان أمير بلخ، وكان مجوسياً زرادشتيا، وأسس مملكة إسلامية هي الدولة السامانية. وفي سنة ٨٧٣ دخل جمع كبير من أهل الديلم الزرادشتيين في الإسلام على يد ناصر الحق أبي محمد. وفي سنة ٩١٢م دعا الحسن بن علي – من الأسرة العلوية التي كانت تحكم الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين – أهل الديلم وطبرستان إلى الإسلام، فاستجاب معظمهم، وكان بعضهم وثنيين والبعض الأخر زرادشتيين. وفي سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) أعتنق الشاعر المشهور مهيار الديلمي الإسلام على يد الشريف الرضي، وكان من عبدة النار. وقبله وفي أوائل القرن الثاني للهجرة خرج من الزرادشتيين إلى الإسلام عبد الله بن المقنع.

تحدث المؤرخ (توماس أرنولد) [٢١٨] عن تحول المجوس إلى الإسلام فقال على الرغم من قلة المعلومات التي وصلت إلينا عن تحول المجوس إلى الإسلام فيبدو أن إنتحالهم لهذا الدين كان بمحض إرادتهم كما يظهر، أن إتباع ديانة ذرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسي، وعومل المجوسي في

---

[٢١٨] الدعوة إلى الإسلام ص٣٤٠.

القرن الرابع الهجري كأهل ذمة فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم.

في قصر الخلافة وعند الحكومة. وعاش المجوس في هذا القرن في ظل التسامح الإسلامي، وذكر الرحالة (المقدسي) أنه لم ير في مدينة شيراز مجوسياً يرتدي رداء يميزه عن غيره، وكانت الأسواق تزين في أعياء المجوس.

**صداقة الدولة العباسية لدولة الفرنجة:**

كانت الدولة العباسية أحسن دول العالم وأكثرها هيبة وحضارة وأوسعها رقعة، وقد أخذت بفكرة الدبلوماسية الإسلامية التي تربط الأمم والحكومات بعضها ببعض، فتبادل الخلفاء مع ملوك هذه الدول الهدايا والرسائل، كما ظهر تبادل ثقافي ظهر واضحاً في حركة ترجمة واسعة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ونقل أمهات المؤلفات العربية إلى لغات أجنبية، ووقف الملوك الأجانب على حقيقة روح الإسلام القائمة على التسامح والمودة والحرص على السلام.

تقرب (شارل مارتل) ملك الفرنجة إلى الخلفية العباسي المهدي ليكتسب شيئًا من النفوذ في بلاده، وجنى (شارلمان) ثمار هذه السياسة، فاكتسب محبة هارون الرشيد. وخطب شارلمان ود الرشيد فأرسل إليه وفدًا مؤلفًا من رجلين من النصارى ورجلاً من اليهود، لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس، ونشر التجارة بين البلدين، والحصول على علوم الشرق. وأدت هذه السفارة إلى إرسال مفاتيح

كنيسة بيت المقدس إلى شارلمان، وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد. وكان من الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان تلك الساعة المائية الدقاقة التي ظنوا أنها آلة سحرية، وغيرها من هدايا الشرق النادرة.

ورغم أنه كثيرًا ما كانت الدولة العباسية تصطدم بالدولة البيزنطية، إلا أنه أحياناً تسود فترات هدوء ومهادنة. ومن أمثلة ذلك الرسالة التي بعث الإمبراطور (ثيوفيل) إلى الخليفة المأمون العباسي بصدد تبادل الأسرى، وقد قال فيها: "وقد كبت إليك داعيا إلى المسألة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ويكون كل واحد لكل واحد وليًّا وحزبًا، مع اتصال المرافق والفسيح في المتاجر وفك الأسرى وأمن الطريق".

ومن أمثلة المودة الطيبة بين المسلمين والمسيحيين، كتاب بطريق القسطنطينية إلى أمير كريت المسلم إبان تبعيتها للدولة الإسلامية وقد جاء فيه: "... إلى الأمجد الأغر الأشرق أمير جزيرة كريت: إن أعظم قوتي العالم أجمع، قوة العرب، وقوة الروم، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء، وبهذا وحده يجب أن نعيش أخوة، على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين".

## المسيحيون في ظل الحكم العثماني الإسلامي:

تحت عنوان (علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين قائمة على التسامح) كتب المؤرخ (توماس أرنولد) [٢١٩]: باشر العثمانيون

---

[٢١٩] الدعوة إلى الإسلام ص١٧٠.

السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى. ولم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت. ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني بعد سقوط القسطنطينية وإعادة النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين، بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الأفريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق.

ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعاً أيضاً بسلطة أهلية واسعة، فكان من عمل البطريركية أن تفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض. بينما صدرت الأوامر إلى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنيسة (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقاً بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريق وأعضاء المجمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء. كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلاً من جانب الحكومة. ولما كان هذا البطريق معترفاً به موظفاً من موظفي الحكومة السلطانية، كان يستطيع أن يقوم بعمل

كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان إلى أعمال الحكام الظالمين.

كذلك عومل الأساقفة من الإغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة، وعهد إليهم كثيراً من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية، إلى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم كما لو كانوا عمالاً من الأتراك الأرثوذكس، وبذلك حلوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة، التي استأصل الغزاة شأفتها.

كان من أثر ذلك، أن الإغريق، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددًا في كل الولايات الأوروبية التابعة للدولة، قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم، يسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية. وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبًا من جانب الإغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية (البلوبونيز) وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان، فقد صيروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها، بإدخالهم نظام الإقطاع في اليونان، كما كانوا مكروهين من رعاياهم لاختلافهم عنهم في اللغة والجنس والعقيدة، ووجد هؤلاء الرعايا أن أي تغيير لحكامهم، طالما لا يمكن أن ينقلهم إلى حالة أسوأ مما هم عليه، وقد يهيء لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة.

ويعدد (أرنولد) [٢٢٠] مظاهر تسامح العثمانيين في معاملتهم للمسيحيين فيقول: حدثنا المؤرخ البيزنطي الذي روى قصة سقوط القسطنطينية، كيف كان بايزيد الصارم نفسه، رحب الصدر، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية تامة. وقد اشتهر مراد الثاني بعنايته في تحقيق العدالة بإصلاحه للمفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريقيين، وعاقب في غير هوادة أي موظف من موظفيه استبد بأي من رعاياه. لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل، طائفة من الحكام الصالحين، واستطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها، ووجدنا تنظيمًا رائعًا في الشئون المدنية والقضائية.

## المسيحيون في المجتمع العثماني

فتحت الدولة العثمانية كثيرًا من الأقطار الأوروبية التي يدين معظم أهلها بالدين المسيحي، وقد عاش الرعايا المسيحيون إلى جانب العثمانيين المسلمين في مجتمع واحد تظللهم سماء الحرية والتعاون. واعترف المؤرخ (أرنولد) بهذه الحقائق فقال: وفيما وصل إلينا من الأخبار التي تتعلق بالصلات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين، نجد ما يرشدنا إلى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجيا،

---

[٢٢٠] الدعوة إلى الإسلام ص١٧٣.

بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين، الأمر الذي يرجع إلى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية.

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين، ولم تعترض النساء المسيحيات، وتربى الأطفال من الذكور الذين نشأوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن. ولم يكن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العملية من رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرابين المقدسة. وكان من أثر ذلك (على الرغم من أن خريي الكنائس طالما كانوا يغضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيراً من أولئك الأمهات قد دخلت في دين أزواجهن.

كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى، فمثلاً يقول (ماركوبتزي) أنه في يوم عيد القديس إيليا وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى. وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمون مريم العذراء، كما أن المسيحيين يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالنذور. وفي مدينة (كالفاتشي) حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسرات من المسلمين، ساهم المسلمون في إعانة كاهن أبرشية، إذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات.

كانت الأقطار المسيحية الخاضعة للحكم العثماني أحسن حكمًا وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية، وكانت جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحكام المسيحيين.

وهناك وثيقة تاريخية كتبها (مقاربوس) بطريق أنطاكية اعترف فيها بتسامح العثمانيين، جاء فيها: "..أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودا أو سامرة".

وأدى هذا التسامح إلى دخول أعداد كبيرة من المسيحيين في الإسلام فيقول (أرنولد) [٢٢١]: وكثير ما أنحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا. ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور (جون كومنين) وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية. وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان، فنجد من بين الداخلين في الإسلام عددا كبيراً ينتمون إلى بيت (باليولوجوس) الإمبراطوري، كما هجر العالم (جورج أميرو تزيس الطرابيزوني) المسيحية. وأصبح الدين

[٢٢١] الدعوة إلى الإسلام، ص١٧٦.

الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلفتها الهرطقة البوليثية.

وقد كانت هذه الحركة إلى حد كبير احتجاجًا على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين، كما كانت تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع.

وحفظ (أرنولد) [٢٢٢] ما كتبه مؤلف معاصر للعصر العثماني فقد وصف دخول أعداد كبيرة من المسيحيين في العقيدة الإسلامية، وذكر دوافعهم إلى ذلك، فكتب: "عندما تخالطون الأتراك في مجرى حياتهم العادية، تراهم يقيمون الصلاة، ويرتلون مزامير داود، ويمنحون الصدقات ويدفعون غير ذلك من أعمال الخير، ويعتقدون في المسيح اعتقادًا ساميًا، ويتناولون التوراة في شرف عظيم، إلى غير ذلك، هذا فضلاً عن أنه كان يمكن أن يصير أي جاهل، خورى كنيسة، إذا سعى إلى الباشا التركي بالهدايا، ولن يحضكم هذا الخوري كثيراً على المسيحية. حينئذ سوف تنتهون إلى التفكير في أنهم قوم صالحون، وأن من الممكن جدًا أن يدركهم الخلاص، وسوف تنتهون إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدركم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكًا مسلمين، بذلك سوف يمحي من أذهانكم في سهولة يسر سر الثالوث المقدس، وابن الله المصلوب، وسائر أسرار الدين الكثيرة التي يلوح أنها غير معقولة بصورة ما في نظر الشخص الأمي. وإذا بروح المسيحية تسوت في نفوسكم من حيث لا تشعرون، وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام".

---

[٢٢٢] الدعوة إلى الإسلام، ص١٩٢.